الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٦ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

مهاد

ليست كلمة « كونفيشيوس » هي الاسم الصيني الصحيح لهذا الحكيم ، وإنما هو تركيب « لَتَّنَهُ » الأوربيون كما اقتضت طبيعة لغاتهم إذ أصلها « كونج فوتسيه » . فأما « كونج » فهو اسم الأسرة ، وأما « فووتسيه » فمعناها الأستاذ المبجل

ولد هذا الحكيم في مدينة « تسيئو » سنة ٥٥١ قبل المسيح من إحدى الأسر الملكية الماجدة التي أثبت تاريخ دوحات الأسر العريقة أنها تصعد إلى عهد أسرة « تشو » في القرن الحادي عشر قبل المسيح ، وأن رئيس هذه الأسرة في ذلك العهد النابر الذي سبق مولد « كونفيشيوس » بأكثر من خمسة قرون كان يدعى دوق « دي سونج »

تزوج « شوليانج — هي » والد حكيمنا للمرة الأولى وعاش مع زوجته زمناً طويلا دون أن يرزق بولد ، وكان إذ ذاك حاكما على مدينة « تسيئو » فلما بلغ من العمر سبعين سنة تزوج مرة ثانية فرزق هذا الحكيم الذي منت به السماء على الصين ، ليحفظ تراثها النابر ، ويبعث مجدها الدائر ، ويسطع في سماء مستقبلها سطوعاً يسجل اسمها بين أسماء الأمم الخالدة ؛ ولكنه لم يكد يبلغ العام الثالث حتى توفي والده وترك الأسرة في حالة من الضنك يرثى لها ، بيد أن مجد الأسرة وسمعتها الأدبية ساعداها على تربية هذا الطفل وتثقيفه كما يثقف أبناء طبقتها من الأثرياء ، وقد كونت هذه التربية العالية « كونفيشيوس » تكويناً قيما كان أساس تلك الفلسفة الباهرة

لا يعرف التاريخ عن حياته الخاصة أكثر من أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره ، وأنه لم يكن موفقاً في زواجه ، ففارق زوجته بعد بضعة أعوام من تاريخ الزواج ، ولكنه أعقب منها غلاماً وفتاة زوجها فيما بعد لأحد تلاميذه الأوفياء ، وأنه بعد زواجه بزمن يسير عين مراقباً في إحدى إدارات الزراعة فكان هذا التعيين ثقيلاً على نفسه ، لأنه كان يراه من ناحية غير متناسب مع سمو مكانته ، وكان من ناحية ثانية متنافياً مع مواهبه وثقافته ، ولكن ضرورة البأساء قد ألجأته إلى قبوله فقبله على مضض ؛ ثم ظل يتحرق إلى مهنة التعليم التي كان يعتقد أنه خلق لأجلها ، فلما حيل بينه وبينها أخذ يقوم بها في أسرته ، وأخيراً عين أستاذاً في مدينة « لُو » حيث كرس مجهوداته كلها للعلم والتعليم والبحث وراء الحقيقة ، ونشر الفضائل الأخلاقية . وكان منزله أرقى نادٍ في المدينة يجتمع فيه أجل الشبان المهذبين الراغبين في العلم والأخلاق والتقدم الاجتماعي ؛ وكان جميع المهذبين من شيوخ وشبان مفتونين بما حواه رأس هذا الحكيم الشاب من معارف سامية . وفي الحق أن رأيه كان موسوعة لعلوم عصره وفنون زمنه . وإليك ما يصف به نفسه في كتاب « لون — يو » :

« في الخامسة عشرة كنت أفرغ كل عنايتي في الدراسة ، وفي الثلاثين كنت أسير بخطى أكيدة وحازمة فوق صراط الفضيلة ، وفي الأربعين لم يكن لدي أي ريب ، وفي الخمسين كنت أحيط علماً بناموس السماء ، وفي الستين كنت أفهم كل ما تسمعه أذني ، وفي السبعين كانت كل رغبات قلبي متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة أخلاقية [1] »

في سنة ٥٢٥ قبل المسيح ارتحل إلى « لو » مدينة « لاهو — تسيه » ليكمل معارفه بالاطلاع على محفوظات الدار الملكية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ؛ وبعد أن أقام بهذه المدينة سنة عاد إلى بلده . وفي سنة ٥١٦ شبت حرب أهلية بين كبار الملاك في مقاطعته ، فغادرها إلى مقاطعة أخرى ، فاستقبله رئيسها أعظم استقبال ، وأخذ يستنصحه في كثير من نواحي الحياة ، ولكنه لم يتبع نصائحه في حياته العملية ، فلما قدم إليه المال رفضه الحكيم قائلا : « إن الرجل الفاضل لا يتسلم من المال إلا بقدر ما يقوم به من الأعمال ، وإني قدمت إلى الأمير نصائح فلم يعمل بها ، فإذا حسب بعد ذلك أنني سأقبل ماله فهو بعيد عن فهمي

(١) راجع الفصل الثاني من كتاب « لون — يو »

وبعد إقامته خمسة عشر عاماً فى هذه القاطعة عاد إلى بلاده ، وكانت المياه فيها قد رجعت إلى مجاريها ، وهناك عين مديراً أعلى لمدينة « تشونج — تو » فكنه هذا التعيين الجديد من أن يخرج مبادئه إلى حيز العمل وأن يحقق أفكاره العمرانية الراقية . وإذا صدقنا ما يقوله أحد معاصريه المؤرخين ، جزمنا بأن عصره كان عصر إعجاز فى النجاح الإداري . فالرقى الذى ظهر فى تلك المدينة والسلوك الأخلاقي الذى استحدث فيها جعلا أمراء المدن الأخرى يتخذونها نموذجاً لمدنهم ، بل إن دوق مدينة « لو » سأل « كونفيشيوس » عما إذا كان من الممكن تطبيق قواعد إدارته على جميع مدن الدولة ، فلما أجاب بالإيجاب عينه الدوق نائباً للسكرتير العام للدولة ثم وزيراً للحقانية فلم يكد يتولاها حتى انقطعت جميع الجرائم وتعطل تطبيق قانون العقوبات تعطيلا تاماً ، لأنه لم يعد فى الدولة جانون يطبق عليهم

لاريب أن فى هذا شيئاً من المبالغة ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن البلاد قد قطعت فى عهد إدارة « كونفيشيوس » شوطاً بعيداً فى التقدم الأخلاقي والعمرانى والسياسى ، وأن هذا الحكيم قد أعاد إليها صورة العصر الذهبي وأشعرها من جديد بالرخاء والسعادة . وبمعاونة صديقيه « تسيه لو » و « تسيه يو » اللذين كانا يشغلان وظيفتين عاليتين من وظائف الدولة قد تمكن من تقوية سلطة الأمراء وإضعاف قوة الأسر المتمردة فاستتب الأمن وسادت السكينة فى البلاد

غير أن هذه النعمة لم تدم طويلا ، إذ لم يكد حكيمنا يصل إلى أوج الشهرة الحقة حتى حسده جماعة من معاصريه وهيأوا للدوق أسباب اللذة ؛ فلما أفرط فيها أصم أذنيه عن سماع نصائح « كونفيشيوس » فهدده هذا بالاستعفاء إن لم يستقم ويُعنَ بمرافق الدولة . فلما أصر الدوق على عناده لم يسع الحكيم إلا اعتزال الخدمة ، وقد فعل ؛ فاستقال فى سنة ٤٩٦

ومنذ هذا التاريخ أخذ « كونفيشيوس » يرتحل من بلد إلى بلد حتى آخر حياته دون أن يقيم فى بلد أكثر من ثلاثة أعوام ، وكان يستقبل فى كل مكان بالإجلال والإعظام ، ولكن لم يتبع نصيحته أي ملك ، بل كثيراً ماتعرضت حياته للخطر ، وكان قلبه من أجل ذلك مفعما بالمرارة والحزن في جميع أسفاره التى كان لايرافقه فيها إلا تلاميذه المخلصون والتى أذاقته من التشاؤم واليأس ما دفعه يوماً إلى أن يسائل نفسه قائلا : « هل أنا إذن ، يقطينة مرة لا يستطيع أحد من بنى الإنسان أن يذوقها »

بعد أن أنهكته هذه الأسفار المختلفة ألقى عصا التسيار فى مدينة « لو » وكانت سنه إذ ذاك تسعة وستين عاماً فاستقبله دوقها الجديد بكل ترحاب وإجلال ، ولكنه نهج نهج أسلافه فلم يتبع نصائح الحكيم فى أي شأن من شؤون الدولة ، فلم يكن ذلك جديداً على نفس « كونفيشيوس » ولكن الذي حطم قلبه فى هذه الشيخوخة هو أنه رأى بعينيه الفانيتين موت ابنه الوحيد وتلميذيه المختارين « هُوى » و « تسيه — لو » . فلما حلت به هذه الكارثة أحالت الدنيا فى نظره ظلاماً ، ولكنها لم تقعده عن واجبه فى الحياة ، فكرس الشهور الأخيرة من حياته لجمع ونسخ الكتب القديمة المقدسة التى أشرنا إليها فى حديثنا عن مصادر الفلسفة الصينية

وأخيراً هوى هذا الكوكب فى اليوم الحادى عشر من الشهر الرابع من سنة ٤٧٨ قبل المسيح بعد مرض لم يدم إلا أحد عشر يوما

كونفيشيوس وبعد مماً

كتب أحد المؤلفين الانجليز وهو : « هـ . ج . ألين » كتاباً سخيفاً بعنوان « كونفيشيوس أسطورة » عانى فيه عَرَقَ القِربة كما يقول العرب لإنكار « كونفيشيوس » ومحاولة تصويره فى صورة الأساطير الخيالية . ولست أحب أن أرد على هذا المتعالم الانجليزى بأحسن من تعليق الأستاذ « زانكير » الذى أقتطف منه ما يلى : « فى ذلك العصر المحزن أى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذى كان الناس يظنون فيه أن العلم ينحصر فى الإنكار والشك فى الحوادث والشخصيات التاريخية الثابتة ، فأنكروا « لاهو — تسيه » و « بوذا » والمسيح . فى ذلك العصر الأسيف هب إنجليزى خامل ، بنية إنشاء الضجيج حول اسمه الذى لولا هذا الإنكار لما ذكره أحد ، فزعم أن « كونفيشيوس » أسطورة من الأساطير ، ولكن إذا كان ينبغي لنا أن نشك فى وجود حكيم « تو » فلست أدرى لماذا نحن نؤمن بوجود « سقراط » و « يوليوس قيصر » و « شارلمان » بل ، ولكى لا ننسى الانجليز فى ردنا نقول لهذا الزاعم أيضاً : وكذلك يجب أن نؤمن بوجود « غليوم الفاتح » [1] ، وأظن

(١) دوق فرنسى فتح انجلترا وتملك عليها فى سنة ١٠٦٦ وقد ذكره العالم « زلنكير » ليبين به ذلك الانجليزى المتعالم .

أنه ليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على إنكار واحد من هؤلاء

ولكن لحسن الحظ قد بدأ العقلاء يعدلون عن النظر إلى هذا النوع من العلم نظرة جدية

أما الذي لا يقبل الريبة بحال : فهو أن « كونفيشيوس » — بالرغم من قلة مصادرنا العلمية عنه — قد وجد وجوداً حقيقياً لأن تلاميذه ومعاصريه قد أعطونا عنه صوراً مادية وأخلاقية أمينة

أهم ما تمتاز به الشخصية

إن أهم ما اشتهر به هذا الحكيم من أخلاق سامية هو الهدوء الذي لا حد له ؛ إذ حدثنا تلاميذه أنه لا الظلم المروع ، ولا الألم المبرح ، ولا الخطر المميت ، كانت تهزه أو تحدث في نفسه أقل اضطراب . ومن هذه الأخلاق أيضاً ما يروونه لنا عن وداعته الفائقة ، وتواضعه المنقطع النظير الذي يصفه لنا هو شخصياً فيقول : « كيف أستطيع أن أشبه نفسي بالحكيم أو بالرجل الذي يعمل للفضيلة ؟ ! إن كل ما أستطيع أن أقوله عن نفسي : هو أنني أقهرها على محاولة مساواتهما بدون ملل ، وعلى تعليم الآخرين دون انفكاك »

ومع ذلك فقد كان عنده ثقة عظيمة في نفسه وفي رسالته الأخلاقية ، غير أنه كما أن تواضعه لم يهنه أمام من هم أقوى منه ، كذلك ثقته بنفسه لم تدفعه إلى الكبرياء على من هم دونه

ومن محامده الجليلة أنه لم يسمح يوماً لعاطفته أن تتعدى حدودها المرسومة لها في أي ناحية من نواحي حياته العلمية أو العقلية حتى قيل عنه : إن التفكير العاطفي لم يجد له مكاناً قط بين تعقلاته . وقد كان هذا القول حقاً إذ أنه حين سأله تلاميذه عن رأيه في حكمة « لاهو — تسيه » القائلة : « أحبوا أعداءكم كما تحبون أصدقاءكم » أجاب بقوله : « إذا أحببتم أعداءكم ، وكافأتم بغضهم إياكم بحب من جانبكم ، فبماذا إذاً تكافئون حب أصدقائكم ؟ كلا ، بل أجيبوا على البغض بالعدل وعلى الحب بالحب »

ولكن ليس معنى هذا أنه كان جافاً محروماً كل عاطفة نبيلة ، كلا ، لأنه كان يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالعطف على أصدقائه وتلاميذه ، وبالحب الحار لوطنه ، وبالإشفاق القوى على الضعفاء

(يتبع)

محمد قطب

رؤيا «مرزا»

للكاتب الانجليزي أديسون

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

قال أديسون :

قد اتفق لي حينما كنت في تلك المدينة العظيمة ، مدينة القاهرة ، أن اشتريت بثمن بخس بعض المخطوطات الشرقية القديمة التي ما زلت محتفظاً بها

وبين تلك المخطوطات التي صادفتها مجموعة تسمى «رؤى مرزا» قرأتها في سرور عظيم ثم عولت على تقديمها إلى القراء إذ لا أجد لدى غيرها أسرى به عن نفوسهم ؛ وسأبدأ بأولى تلك الرؤى وهأنذا أترجمها كلمة كلمة فيما يأتي :

في اليوم الخامس لظهور القمر ذلك اليوم الذي كنت أقدسه جرياً على عادة جدودي ارتقيت تلال بغداد العالية بعد أن أديت فرائض الصباح ، لأقضي هنالك بقية اليوم في التأمل والصلاة

وبينما كنت أنعم هناك بالهواء الطلق على قمم الجبال ، إذ وجدت نفسي غارقاً في تأمل عميق حول حياة الانسان وما يكتنفها من غرور ، وإذ كنت أنتقل من فكرة إلى فكرة فقد ناجيت نفسي قائلاً : « حقاً إن الانسان خيال ، وإن حياته حلم » . وبينا أنا كذلك أعمل الفكر ، إذ أخذت عيناي رجلاً في زي الرعاة على رأس صخرة تقع غير بعيد مني ، وكانت في يده آلة موسيقية ، فلما رآني أنظر إليه رفعها إلى شفتيه وجعل ينفخ فيها ألحانه ؛ وكان صوت تلك الآلة فائق الجمال كما كانت تنبعث منها طائفة من النغمات الرخيمة لم يسبق أن صادفت مثلها رونقاً وطرباً . ولعمري لقد صورت لي تلك الألحان هاتيك الأنغام السماوية العذبة التي تقابل بها أرواح الصالحين حينما تصعد إلى الجنة ، هنالك حيث تذهب عنها آثار آلامها الأخيرة وحيث تتأهب لما أعد لها من النعيم في ذلك المكان السعيد . وسرعان ما اهتز قلبي في انتشاء عجيب